الرسائل النثرية الشخصية في العصر العباسي

الدكتور خالد الحلبوني*

الملخص

شهد العصر العباسي نشاطاً واسعاً في الكتابة الفنية، ولاسيما في الرسائل الشخصية؛ التي اهتمت بمظاهر الحياة الاجتماعية، والصلات الإنسانية بين أفراد المجتمع.

وشرع الكُتّابُ يصنّفون رسائل كثيرة، من خلال موضوعات متنوعة؛ كالتهنئة، والتعزية، والهدايا، والاعتذار، والشكوى، وغير ذلك.

وقمت بتحليل طائفةٍ من تلكَ الرسائل، وبيان خصائصها ومميزاتها، ومنهج الكتابة الأدبية، وطرائق تناول الكُتَّاب لتلك الرسائل، سواء من اهتموا باللفظ، أو أولوا المعنى عناية خاصة.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة دمشق

تمهيد:

اعتنى المجتمع العباسي ــ كغيره من المجتمعات الراقية ــ بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية ؛ فكان فيه التهنئة والتعزية، والإهداء والزيارة، وغير ذلك من الصِّلات الإنسانية؛ التي يتصل بها الناسُ بعضهم مع بعض.

وقد عبَّر الأدباء ورجال الفكر في العصر العباسي عن تلك المظاهر الاجتماعية خير تعبير، عبر وسائل عديدة، وأهمها الرسائل التي صوَّرت ملامح المجتمع، وروابط الأفراد، وعلاقاتهم، وما يتعلق بجوانب حياتهم كلها.

إن تلك الرسائل المتبادلة بين أفراد المجتمع العباسي تعطي صورة واقعية مظاهر الحياة آنذاك، فالتهنئة لها أثر إيجابي في الأفراح، والتعزية تُرسِّخ مفهوم الوقوف بجدية تجاه أحزان الناس، ومحاولة التخفيف عنهم، كما أن الهدية تزيد التحابب، وتؤكد الودَّ، وتُنمِّي العلاقات نحو الأحسن والأفضل، وهكذا بقية المظاهر الاجتماعية لها آثار إيجابية، ونتائج مستحبة، ومن هنا شرع الكُتَّاب يصنِّفون رسائل شتى يتحدثون فيها عن مختلف الموضوعات الاجتماعية الثَّرة.

1 ــ التهنئة:

يعدُّ هذا الموضوع من السهل الممتنع، ففيه تظهر مواهبُ الكُتَّاب، ومراتبهم من البلاغة، لأن التهنئة متعددة التفاصيل والمواقف، وفيها مخاطبات مختلفة حسب الحالة التي يقتضيها المقام؛ لذا تتعدد أغراضُها ومبانيها ومعانيها ؛ مما يقتضي معالجة كل حالة وحدها، وحسب الجوانب المتعلقة بها.

وثمة أمور لازمة لا غِنى للكاتب عن معرفتها، وأهمها أمران اثنان، وهما:

الأول: معرفة تأثير الرسالة الشخصية فيمن تُرْسَلُ إليه، وأن يعي الهدف من كتابته، والغرض مما يقوم به؛ لأن التهنئة من الموضوعات التي لها شأن كبير، ومقام

رفيع. يقول صاحب «مواد البيان»: «كُتُب التهاني من الكتب التي تَظْهَرُ فيها مقادير أفهام الكُتَّاب، ومنازلهم من الصناعة، ومواقعهم من البلاغة، وهي من ضُروب الكتابة الجليلة النفيسة ؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتَضَاعُفِ السرور بالعطية»[1].

الثاني: إدراك الكاتب أقدارَ من يُوجِّه إليهم الرسائل، فيعطي كلاً منهم مكانته، واعتباره، وطريقة مخاطبته. قال القلقشندي نقلاً عن «مواد البيان»: «يجب على الكاتب أن يُراعي فيها مرتبة المكتوب إليه، والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما؛ مما لا يُتسامَحُ بمثله»[2].

وموضوعات التهنئة كثيرة، منها: التهنئة بالولايات، وبإنعام السلطان وإكرامه، وبالعودة من الحج، والقدوم من السفر، وبالمواسم، والأعياد، وبالزواج، والأولاد، والشفاء من الأمراض، واتخاذ المنازل الجديدة، وغير ذلك.

وقد ارتبطت **التهنئة بتولي الخلافة** بتعزية الخليفة الجديد بوفاة سابقه، وإظهار هول المصيبة، وعِظَم الفادحة، وربط ذلك بمسألة القضاء والقدر، فلا رادَّ لإرادة الله ومشيئته. من ذلك رسالة جبل بن يزيد إلى المهدي يهنئه بعرش الخلافة بعد وفاة والده المنصور، وتبدأ الرسالة بالحديث عن قدرة الله تعالى، وأن قضاءه وقدره نافذ في الخَلْق، والموت سُنَّة ماضية، وسبيل كل حي، على الرغم من أن هذه المصيبة «لا تعدلها المصائب، ولا تُوازيها الفجائع»[3].

ويلجأ الكاتب إلى الوعظ لتخفيف صدمة ما حدث من رُزْء النازلة، فيؤكد «أن الفجائع أمرٌ جَرَتْ به سُنَنُ الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً» [4].

---

(1) صبح الأعشى (5/9/).

(2) المصدر السابق (6/9).

(3) جمهرة رسائل العرب (129/3).

(4) المصدر السابق.

وبلفتةٍ بارعة يوظِّف الكاتب قضية الموت ليثبت أنها وسيلة لجمع الكلمة، فهي نعمة تدعو إلى اتخاذ موقفٍ صبور تجاه ما حدث ؛ ليتمَّ الانتقال إلى نِعْمة الخلافة، وما ينتج عنها من خيرٍ للجميع. يقول: «والحمدُ لله على ما تلافى به عباده في بلائه ؛ من نعمته التي لمَّ بها الشَّعث، وجَبَر بها المصيبة، وشدَّ بها أركان الإسلام وأهله»[1].

فحدوث النعمة مرتبط بنزول المصيبة، فبمقدار الإحساس بفجيعة موت الخليفة السابق، فإن خلافة اللاحق نعمة، و «عائدة من الله تعظم عن كل ما عسى واصِفٌ أن يصفه من أهلها، أو يُعْظم من وجود شكر الله فيها»[2].

وتظهر مقدرة الكاتب في إلباس المصيبة ثوب النعمة، وإعطاء التعزية معنى التهنئة، وهذا ما يدفعه إلى إظهار سرور الرعية وحبورهم بخلافة المهدي، واندفاعهم إلى بيعته عن قناعة ورضا، فالبِشْر يطفح من وجوههم ؛ لاجتماع الكلمة، وتوحُّد الموقف، وسرور الجميع بالخليفة الجديد. يقول جبل بن يزيد: «وإن الخبر أتانا بوافد أمير المؤمنين المهدي بأنها كانت بيعةً سليمة مباركة، لم يُطْلع أحداً من الناس فيها اعتراض ولا خِلاف بقول ولا فعل، بل استفاض به الرضا والغبطة، وظهر السرور من العامة والخاصة»[3].

وفي خاتمة الرسالة يضرع الكاتب بالدعاء إلى الله تعالى ؛ ليعين الخليفة المهدي للقيام بالمهام الجديدة، ومسؤوليات الحكم، وأثقال إدارة الدولة، وأن يعمل بما يُرضي الله سبحانه، ويحفظ حقوق الناس[4].

وقد استخدم الكاتب الألفاظ المناسبة في التعزية (المصائب، بلائه، نزلت) والتهنئة (الرضا، الغبطة، السرور، النّعمة، حدثت) وهو بهذا أظهر لكل موضع ألفاظه

---

(1) المصدر السابق.
(2) المصدر السابق.
(3) جمهرة رسائل العرب (129/3)
(4) المصدر السابق (130/3).

الخاصة به، المقرونة بالجو العام وظلاله، مشيراً إلى تمكنه من ناصية اللغة ولاسيّما تلك المترادفات (لا تعدلها المصائب، ولا توازيها الفجائع) وقوله: (استفاض به الرضا، وظهر السرور). والجمل خبرية تفي بالغرض لنقل أبعاد المشهد، مع الإقناع للتأثير في الآخرين. علاوة على أنها واضحة في المعنى، فلا لبس فيها ولا غموض، ومتينة في سياقها، ومترابطة فيما بينها ؛ مما يشير إلى جزالة التراكيب وقوتها.

وتظهر ذاتية الكاتب من خلال اختياره واصطفائه لألفاظه، وتقليب المعاني عبر جسرٍ من المقارنة والموازنة، وهنا يكمن إبداع الكاتب وذاتيته، وكل ذلك بدا بارزاً بتخير الألفاظ المناسبة المعبرة عن ثقافته، وأسلوبه المبين المنعكس صدى لذاته.

وكانت خطة الرسالة موضوعية في ترتيب أفكارها، وهو ترتيب نشأ عن تصميم مدروس، وكان ثمرة لمعاناة الكتابة، والتمرس بها. فجاءت الأفكار منتظمة بخيط متواصل لا ينقطع، ولا غَرْوَ في ذلك ؛ لأنه بدأ رسالته بمقدمة، ثم عرض أفكاره في صُلْب الرسالة، وانتهى بالدعاء كخاتمة متميزة. وفي هذا منهجية دقيقة وتقصٍّ لأبعاد الموضوع صادر عن عقل رزين، وأسلوب كتابي يدقق، ويُحدِّد ويستقصي مواطن الجمال والتأثير.

ويطفو على سطح الرسالة: الطباق (مصيبة ــ نِعْمة، العامة ــ الخاصة) واستخدام أسلوب التعجب والتكرار (أعظم بالمصيبة مصيبة نزلت، وأعظم بالنعمة نعمة حدثت) مما ساعد على توضيح الأفكار، وجعلها مؤثرة تأثيراً يلفت النظر ويكون له جوانب إيجابية لا ينكرها أحد.

والشيء الملفت للنظر أن الكاتب أخرج الدعاء من إطار العمل الديني إلى مسارح الأدب وأفلاكه، فأصبح الدعاء من مستلزمات الرسالة عند جبل بن يزيد، وأساساً لا يُستَغْنى عنه في معمارية إنشائه، وجمالية تعابيره.

ومن وجوه التهنئة ما يتعلق بالمناسبات، كمناسبة عيد الفطر، وعيد الأضحى ؛ فقد أرسل الأديب البليغ عبد الله بن المعتز رسالة تهنئة إلى صديقه الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب في يوم عيد، فقال: «أخَّرتني العِلَّةُ عن الوزير ــ أعزه الله ــ فحضرت بالدعاء في كتابي لينوبَ عني، ويَعْمُرَ ما أَخْلَتْهُ العوائقُ عني، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبُّ ويُحَبُّ له، ويقبل ما توسَّل به إلى مرضاته، ويضاعِف الإحسانَ إليه على الإحسان إليه، ويُمتِّعه بِصُحْبة النعمة ولباس العافية، ولا يُرِيَهُ في مَسرَّة نقصاً، ولا يقطع عنه مزيداً، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون الغِيَرِ عنه ومَنْ حظي به»[1].

وموضوع هذه الرسالة هو التهنئة بالعيد، والاعتذار عن السبب الذي أخَّر ابن المعتز عن الحضور لمعايدة صديقه. ويبذل الكاتب قصارى جهده الفكري ليقتنص مسوِّغات غيابه، ويُبدي أعذاره المقنعة ما وسعته الطاقة، فلا يجد سوى الدعاء ليعوِّض عن حضور شخصه، ويذكر عدة أمور لعلها تشفع له، وهي:

أ ــ ذكر الكاتب أن الذي منعه من الحضور هو العِلّة والمرض الشاغل، فكانت الرسالةُ نائبةً عن القدوم، وقائمةً مقام التواجد.

ب ــ دعا الكاتب أن يبارك له بالعيد، ويجعله أعظم الأعياد، وأكثرها بركة عليه، وزيادة على الفائت منها والقادم.

ج ــ الرسالة طافحة بالدعاء المتعدد، وفي هذا إشارة إلى إحسان الله تعالى على المخاطب، وحاجته إلى برِّ الخالق الرحيم.

---

(1) زهر الآداب للحصري (702/1) وجمهرة رسائل العرب (305/4). «الغِيَر»: حوادث الدهر المغيِّرة.

ويبدو الكاتب مُتَّسماً بقدرات ذوقية، ولغوية، ورؤية دينية. أما الذوقية فقد تجلَّت في جعل الرسالة تنوب عن الحضور الشخصي، وهنا استطاع الكاتب أن يتوسع في الحيلة ؛ ليتخلص مما هو فيه.

وتبدَّتِ القدرات اللغوية في أن الكاتب بحث عن المعاني المناسبة التي تنجيه مما وقع فيه من عواقب التخلف عن الحضور للمباركة بالعيد، فكان دقيقاً في النظر إلى إقامة علاقات لغوية مدهشة ؛ إذ جعل العيد الحالّ خيراً من السابق واللاحق.

أما الرؤية الدينية فتتجلَّى في معرفة أثر الدعاء في نفس المسلم، وتحرُّقه لمن يدعو له دعوات صالحة، تُحسِّن أحواله، وتُزكِّي نفسه، فمهما بلغ الإنسان من إحسانٍ للناس؛ فإنه سيبقى محتاجاً للدعاء ؛ كي يزيده الله من فضله.

ثم إن شخصية الكاتب تتضح في ثنايا الرسالة، وتُطِلُّ عبر تقاطيعها وأفكارها، وذلك من خلال قوله: (أخرتني العلة... فحضرتُ بالدعاء، في كتابي لينوب عني.. وأنا أسأل الله... ويجعلني من كل سوء فداءه...». وهذا الحديث عن الأنا يُعبِّر عن نفسية معتزة بذاتها، وتعرف مكانتها، فابن المعتز ينتمي إلى العباسيين، وهو أديب بليغ، وشاعر مطبوع، وُلِّي الخلافة يوماً وليلة، وهو من بيت ثراء كبير، ومحتد عريق، وكل ذلك دفعه للاعتزاز، وبروز الأنا عنده ؛ وهذا تبدَّى في ضمائر التكلم والتملك في رسالته إلى صديقه، ولم تسلم رسائله الشخصية من ظاهرة الزهو والفخر والخيلاء.

2 ــ التعزية:

ترتبط المكاتبة بالتعزية بِحَدَث الموت الذي هو مصير كل حي. ومجال التعزية واسع ؛ لما يتضمنه من التوصية بالصبر على المصيبة، وتسليم الأمور لله في قضائه وقدره، والترويح عن أهل الميت عما أصابهم، وتعليق الأمر بالله في التعويض عن الأمر العارض بالجزاء الجزيل يوم الحساب.

وهناك تقارب في عدة نقاط بين التهنئة والتعزية، إذ يتفقان في أن لكل منهما مناسبة مخصوصة، والخطاب فيهما مُوجَّه لصاحب المناسبة. يقول مؤلف «مواد البيان»: «وحكمها حكم التهاني من الرئيس إلى المرؤوس، ومن المرؤوس إلى الرئيس، ومن النظير إلى النظير»[1].

ويريد الكاتب ــ سواء هنَّأ أو عزَّى ــ أن يؤثر في نفسية المخاطَب، ويُحْدِثَ رداً إيجابياً له أبعاده ورُؤاه.

وقد وقف الكُتَّاب في رسائل التعزية موقفاً مناسباً ؛ إذ عرضوا أحزانهم، ومشاطرتهم الأسى لمن حلَّت به المصيبة، فكانت رسائلهم مشاركة اجتماعية من وجهة نظر ذاتية.

ومن رسائل التعزية المهمة ما كتبه إسحاق بن الخطاب ــ أحد البلغاء العباسيين ــ في تعزية الهِزَبْر بن صُبَيْخ ــ فصيح عباسي مُترسِّل ــ بوفاة أبيه، وحاول إسحاق إدخال الصبر إلى نفس الهزبر، ودعاه ليقف موقف الراضي بقضاء الله وقدره، فيقول: «وهذا أوانُ اختبار الله إياك بشكر ذلك، وإقرارك بالحجة عليه فيما كنتَ به محتجاً على غيرك، ودليلاً عليه مما ذَخَر الله لأهل الفضل، ووَعَدهم إياه على ما رضي من القول عند وقوع قضائه وقَدَره، وما أَخْبرَ به خَلْقَهُ وبلاهم بحَسَنه وسَيِّئه، وحُلْوه ومُرِّه»[2].

ولفت الكاتبُ نظر صديقه إلى وقوع الموت بين الناس صباح مساء، وأثره في نفوس أهل المتوفى، حيث يُصيبهم الحزن، وتغشاهم الكآبة، ويحسُّون بالضيق، فيقول: «والموت قد رأيتَ ورأينا خَطَراته بين أظهرنا، يخترم الأبعدَ فلا يحفل، ويترك الأقربَ يجزعُ له، وتتقلب قلوبنا في ذلك مع أهوائنا دون الرضا به»[3].

---

(1) صبح الأعشى (80/9).

(2) جمهرة رسائل العرب (286/3).

(3) المصدر السابق.

وبعد أن هيَّأ الكاتبُ صديقه لتلقي خبر الفاجعة، والوقوف على حقيقة ما جرى، إذا هو يتحدث معه عن حتمية الموت، وأنه لا بد أن يصير كل كائن حي إليه، يقول: «وقد كان أبو الهزبر مخلوقاً لما صار إليه، لا يؤمَنُ منه الشفقةُ عليه، حتى أتاه ما كان يُتوقَّع، ونَزَل به ما لم يُنْكَرْ»[1].

ثم يستجمع الكاتب قواه البلاغية والفكرية لينقل صاحبه من حالته النفسية الشديدة ؛ إلى حال الشاكر لله على كل حال، والثقة بمشيئة الخالق، والتسليم بقضائه، مبتغياً من كل ذلك: التخفيف من وقع المصيبة، ومن أثر الأسى والحزن نتيجة فقد الأب.

وأخيراً يترحم الكاتبُ على الميت، ويدعو له دعوات طيبة، وبذا يُنفّس قليلاً عن صاحبه، مستلهماً ذلك من نصوص القرآن الكريم ؛ طلباً لبلاغة القول، وللتأثير الأكيد في نفس المعزَّى. يقول: «ورحم الله أبا الهِزَبْر، وجعل ما نَقَله إليه خيراً ثواباً وأملاً، وخيراً عُقْباً ومَرَدّاً»[2].

ويختمُ الكاتب رسالته بالدعاء للمعزَّى بالسعادة في الدين والدنيا ؛ فيلقى الله على خير أحواله، راضياً بالقضاء، مُسلِّماً لأمر الله، ولا يكتفي بذلك حتى يدعو لنفسه فيقول: «جعلنا الله وإياكَ من الموفَّقين بالعصمة، والآمنين من عذاب يوم القيامة، ولا أَعْدَمنا الأنس بك، والمتاعَ بطول بقائك»[3].

والمهمُّ في الرسالة المذكورة أن الكاتب إسحاق بن الخطاب يرسم منهجاً تربوياً في أدب التعزية، وسياسة المعزَّى، وما يلزم ذلك من الرضا واليقين.

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق (287/9).

(3) المصدر السابق.

كما يُذكِّر بحقائق الحياة، وضرورة تقبُّلها كما هي، مع الشكر للخالق، والإقرار بقدرته المطلقة، والصبر على بلواء الدنيا، والاتصاف بالأخلاق الحميدة، وإظهار المعاني الإيمانية في المواقف الحسَّاسة.

وعبَّرت الألفاظُ عن المعاني من خلال منهج عقلي، تمثَّل في ترتيب الأفكار الأساسية والفرعية، وتنسيقها متسلسلة، مرتبة .

وجاءت الألفاظ مألوفة، ولكنها جزلة تناسب جو النص (عزاؤه، يجزع، محنة الله، رحم الله). كما صدرت طريقة التعبير عبر مجموعة من التراكيب الأدبية الموشَّحة بمسحةٍ دينية. والمعاني صحيحة، واضحة، سهلة الفهم والإدراك، وأتت التراكيب متينة مترابطة (هذا أوان اختبار الله إياك بشكر ذلك، عوَّضكَ الله من فقده وما عدمتَ من الأنس به السعادةَ في دنياك ودينك). كما لجأ الكاتب إلى الصنعة والقيم التعبيرية الجميلة كالطباق (حلوه ــ مُرّه، ظاهر ــ باطن، طاعته ــ معصيته) والترادف (حتى أتاه ما كان يُتوقَّع، ونزل به ما لم يُنْكَر) والتشبيه (أنت لسانٌ منصوب لذلك)، وهذه المحسنات كانت موظفة بشكل دقيق، تخدم المعنى، ولا تُشوِّه جمال الرسالة وروعتها.

ومن القضايا الجديرة بالذكر أن إسحاق بن الخطاب تميز نثره بالتركيز، أي إعطاء شحنة كبيرة من الأفكار والأحاسيس في أقلّ حيِّز من الألفاظ، فقوله: «وأنت لسانٌ منصوب لذلك» فيه من تركيز العبارة الشيء غير المحدود، مع اكتناز فيض زاخر من الأفكار والرؤى الواسعة. وهذه الشحنة الدلالية تحتاج إلى تفكير وتروٍّ لاستيعاب مرامي الكاتب، وهذا لا يتأتى إلا بعد إدمان النظر، والتأمل في مسارب الكلام.

ونستطيع القول: إن هذا الكاتب المترسِّل متجدد الطاقة التعبيرية، وسياق كلامه فوَّار بالمعاني، خصب بالأفكار، ولفهمه وإدراكه لا بد من معرفة أغوار السياق، وإيحاءات التراكيب.

3 ــ الإهداء:

كثرت الهدايا مع إرسال الرسائل في العصر العباسي إلى الخلفاء، والــوزراء، وقواد الجيش، وولاة الأقاليم وغيرهم، وذلك لتحقيق منفعة، أو التعبير عن شــكر، أو تأكيد مودة، ونحو هذه المعاني.

وتنوَّعت الهدايا تنوعاً ظاهراً للعيان، نتيجة اخــتلاف الطبقــات الاجتماعيــة، والعلاقات الإنسانية، والقدرة المادية.

وسنقف عند رسالتين وهديتين، وهما:

أ ــ هدية تفاح من إحدى الجواري إلى الخليفة المأمون.

ب ــ هدية ملحٍ مطيَّب من أحد الفقراء إلى يحيى البرمكي.

أما الأولى: فقد رغبت إحدى الجواري أن تهدي سيدها أمير المؤمنين المأمون، ففكرت وقدَّرت، وعلمت أن أبا المأمون هارون الرشيــد كان يحب التفاح، ويقــول: «أَحْسَنُ الفاكهة التفاح»[1]. من أجل ذلك أهدت المأمون ما كان يحبُّه والده ؛ لتخاطب الخليفة، وتتودَّد إليه بشيء يقع منه موقعاً حسناً، ويكون قريباً من نفسه، وتكتب رسالةً مع الهدية، تذكر فيها خبر أرسطو في طلبه للتفاح وهو يحتضر، كما تعرض لــرأي طبي يبين الفوائد العلاجية للتفاح، ومنافعه التي تكاد لا تُحدُّ، ثم أوردت أبياتاً شــعرية في وصف طعم التفاح وألوانه المختلفة. ويدل هذا على ثقافة الجواري فــي العــصر العباسي، وسعة دراستهن ومعارفهن، وإدراكهن الحقائق النفسية للمُهْدى إليه.

ونظراً لأهمية التفاح تذهب الجاريةُ مذهباً بعيداً ؛ إذ تُحــدِّد للمــأمون مــنهج التعامل مع هذه الفاكهة، وحسن تدبيرها، وهي تخاطب المأمونَ ذا الثقافــة العميقــة، والعلم الجم ولكنَّ محبتها للتفاح، وتودُّدها للخليفة يدفعها دفعاً لوضع برنامج مُحدَّد، يتم من خلاله التعامل مع تلك التفاحة الوحيدة المرسَلة إلى خليفة المسلمين، تقول: «فــإذا

(1) العقد الفريد، لابن عبد ربه (288/6).

وصلتْ إليك يا أمير المؤمنين فتناولها بيمينك، واصرفْ إليها يقينك، وتأمــل حُــسنها بطرفك، ولا تخدشها بظفرك، ولا تبعدها عن عينيك، ولا تبذلها لخدمك. فإذا طال لبثُها عندك، ومقامُها بين يديك، وخِفْتَ أن يرميها الدهرُ بسهمه، ويقصدها بصرفه، فَيُذْهِبَ بهجتها، ويحيلَ نضرتها، فَكُلْها:

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامرِ ....»[1].

واستخدمت الجارية ألفاظاً ذات ظلال شعورية، تدل على أحاسيس خاصة، ومــشاعر لها شأن متميز، وهي تخاطب الخليفة ؛ لذا شكلت الألفاظ في مجملها نــصاً متناســقاً متناغماً مع الانفعال الشعوري، ومن خلال تجربة إهداء التفاحة، فتطابَق الانفعال مــع شحنات الألفاظ ؛ التي استنفدت كل طاقاتها الشعورية، محققة قفزةً إلهاميــة لفظيــة، فضلاً عن رمزية التفاحة وما تعنيه بالنسبة للخليفة الحاكم.

وتعاونت فيما بينها جوانب البلاغة، وخصائص الأسلوب، والمحسِّنات اللغوية ؛ لترفد الألفاظ المستخدمة في النص، فتلقي عليها ظلالاً وارفة تزيدها جمالاً، وهي :

ــ السجع (بيمينك ــ يقينك، بطرفك ــ بظفرك).

ــ **الترادف** (فإذا طال لبثُها عندك، ومقامها بين يديك. يرميــها الدهر بسهمه، ويقــصدها بصرفه. فيذهب بهجتها، ويحيل نضرتها).

ــ أسلوب الشرط (فإذا وصلت... فتناولها. فإذا طال لبثها... فَكُلْها).

ــ الاستعارة (يرميها الدهر بسهمه).

ــ اليسر والوضوح في اللفظ (وصلت، اصرفْ، تأمَّلْ، مقامها.).

ــ عذوبة اللفظ ومتانته (بهجتها، نضرتها، كُلْها).

---

(1) العقد الفريد (288/6). والبيت لكثيِّــر عزة، وعجزه:

..... لعزَّةَ مِنْ أعراضنا ما استحلَّتِ

ــ ثراء المضمون، وعمق دلالته، وتفصيل أدائه، واستقصاء جوانبه، وتحليل تفاصيله، تحقيقاً لقول أبي حَيَّان التوحيدي: البلاغة ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة.

ــ الأسلوب السهل الممتنع، وبذا يرتقي نصُّ التفاحة ذروة الفن التعبيري ؛ حيث جهدت الجارية في صُنْع رسالتها، لنقف على كلامٍ رقَّ لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه، فيبعد عمن حاول تقليده بعنف، ويَقْرُب من المتناوِل بلُطْف، فهذا النصُّ كالروح، تسكن البدن، ولكن سِرَّها لا يُدْرَك.

أضفْ إلى ذلك: الإيقاع المتَّسق مع ظلال التعابير، ولون التجربة الشعورية، حتى لنكاد نحسُّ بالطرب يُطْرِف أسماعنا وجوارحنا ونحن نعيد قراءة الرسالة، فهي صورة حية من تدفق الحيوية، وترتيب الأفكار، والإحساس بالموقف بعمق وتروٍّ، كأن النص يتراقص عبر دروب الألفاظ المنتقاة، والنسق الذي يُرتِّبها، ويحيط بذلك كله إيقاع موسيقي جذاب، يطاول الجمال الفني في أقصى أبعاده.

أما الهدية الثانية، فكانت من أحد الفقراء إلى الوزير يحيى البرمكي؛ حيث عزم الوزير على خِتان أحد أولاده، فأهدى إليه وجوهُ الدولة وأغنياؤها، كلٌّ بحسب حاله وقدرته، إلا أن رجلاً فقيراً أحب المشاركة، فصنع وعاءين من جِلْد، ومِلأ أحدهما ملحاً مطيباً، ووضع في الآخر نبتاً مُعطّراً، وكتب معهما: «لو تمَّتِ الإرادة ؛ لأسعفتِ العادة، ولو ساعدتِ القدرة على بلوغ النعمة ؛ لتقدَّمْتُ السابقين إلى خدمتك، وأتعبتُ المجتهدين في كرامتك، لكنْ قعدتْ بي القدرةُ عن مساواة أهل النعمة، وقصَّرتْ بي الجِدَةُ عن مباهاة أهل المَكِنة، وخشيتُ أن تُطْوَى صحيفةُ البِرّ، وليس لي فيها ذِكْر، فأنفذتُ المفْتَتح بِيُمْنِه وبركته، وهو الملح، والمخْتَتَم بطِيبه ونظافته، وهو السُّعد، باسطاً يد المعذرة، صابراً على ألم التقصير، مُتجرِّعاً غُصَصَ الاقتصار على اليسير، والقائمُ بعذري في ذلك: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على

الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾ [1]. والخادمُ ضارِعٌ في الامتنان عليه بقبول خدمته ومعذرته، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته، والرأي أَسْمَى»[2].

تحمل هذه الرسالة فكرة إرسال الهدية مع التماس العذر ؛ لأن المرسل أحسَّ أن هديته لا تناسب المقام ؛ فالمرسَل إليه وزير عباسي غنيّ، له مكانته وصولته، وما يفعل بالملح والنبت طيِّب الرائحة، وعنده منهما الشيء الكثير. ولئلا يحدث التباس وسوء تقدير للهدية، قدَّم المرسِلُ اعتذاره منذ مطلع الرسالة، وشرح وَضْعَهُ المادي، وقلة ذات يده، وهذا الإقرار وذاك العذر كافٍ في إعفائه عن التطاول لمباهاة الأغنياء ذوي السَّعة، وعلى الرغم من قلّة الحيلة فإن هذا الفقير بذل كل استطاعته ليقدم هدية رمزية، ولا يفوته شرف المشاركة في مناسبة الختان، فالتمس شيئاً يهديه، فلم يجد سوى الملح ــ رمز البركة ــ ونبات السُّعد ــ رمز النظافة ــ.

وهو مع ذلك يحسُّ بالتقصير، ويشعر بأن ما يقدمه لا يرقى إلى المستوى الاجتماعي الذي يحياه الوزير، ولذلك التمس المخرج في ذِكْر آيةٍ من القرآن الكريم تنجيه مما هو فيه ؛ لأنه فقير ولا يجد شيئاً ذا قيمة ؛ لذلك وقع عليه الإعفاء في أمر الهدية. ثم إن الهدية لا تُقدَّر بقيمتها، بل تتحدد قيمتها بمجرد إرسالها، كما قيل في المثل الشعبي: «مَنْ ذكرني بعظمة كنتُ عنده عظيماً».

والألفاظ في هذه الرسالة تمتاز بالسهولة والوضوح، على الرغم من وجود بعض الكلمات التي تحتاج إلى بيان، فالجِدَة: تعني الغنى، والمَكِنة: القوة والشدة، والسُّعد: نبت طيب الرائحة. وتبقى بقية كلمات الرسالة ليس فيها إشكال الغرابة ؛ لأن الغرابة عيبٌ فاحش.

---

(1) سورة التوبة، الآية 91.

(2) عن غرر الخصائص الواضحة (ص 448). و جمهرة رسائل العرب (13/4 ــ 14).

والمعاني صحيحة، توافق الحال والمقام، وبذا نأت عن التصنع المقيت، والتكلف الشديد، والابتذال الساقط.

ويبدو السجع واضحاً بيِّناً (لو تمت الإرادة، لأسعفت العادة. خشيت أن تُطوى صحيفة البِر، وليس لي فيها ذكر). وهذا السجع كان زينة للكُتّاب والكتابة في العصر العباسي، وعنواناً على الاقتدار في معالجة فن القول.

ونوَّع الكاتب أيضاً، فأورد صوراً جميلة عن طريق الاستعارة (باسطاً يد المعذرة، صابراً على ألم التقصير) والمعذرة ليس لها يد، والتقصير لا يملك شعوراً بالألم.

مع التوازن في الجمل (لتقدمتُ السابقين إلى خدمتك، وأتعبتُ المجتهدين في كرامتك). إلى جانب الطباق (المفتتح ــ المختتم).

وبشكل عام اتَّسم النص بالانسجام، وأعني به: سلامة الألفاظ، وسهولة المعاني، مع جزالتهما، وتناسُبهما.

ومن الواضح أن الرسالة كان لها قوة إقناع كبيرة لدى المُهْدَى إليه، ودليل ذلك أن كاتبها دَخَل دار الوزير يحيى البرمكي، ووضع الوعاءين بين يديه، وقرأ الوزيرُ الرسالة، ولما انتهى من القراءة أَمَر أن يُفْرغ الوعاءان، ويُملأ أحدهما دراهم، والآخر دنانير. وكأني بالوزير الألمعي فهم مقصد الرجل الفقير عندما قال في رسالته: «والخادمُ ــ يقصد نفسه ــ ضارعٌ في الامتنان عليه بقبول خدمته ومعذرته، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته»، فما كان منه إلا أن ردَّه مجبور الخاطر.

4 ــ التوصية وطَلَبُ العناية:

لهذا النوع من الرسائل مفهوم خاص، يتجلَّى في أن تلك الرسائل كانت تُوجَّه لمن بيده الأمر والنهي ؛ كي يعتني بحامل الرسالة، ويقضي حاجته. وهي تمتاز بغلبة

الإيجاز عليها، وهذه سمةٌ أسلوبية عُرِفت في ذاك الحين. إلى جانب الإشادة بحامل الرسالة، ودعوة ذوي الجاه والأقدار لإنجاز المطلوب.

وقد كتب أحمد بن يوسف إلى بعض العمال يوصيه بالعناية بإنسان يهمه أمره، فقال: «أنا بفلان تامُّ العناية، وله شديدُ الرعاية، وكنتُ أحبُّ أن يكون ما أرعيتُه طَرْفَكَ من أمره في كتابي، مُستودَعاً سَمْعَك من خطابي، فلا تَعْدِلنَّ بعنايتك إلى غيره، ولا تمنحنَّ تَفَقُدَك سواه؛ حتى تُنيلَه إرادتَهُ، وتتجاوز به أُمْنِيَّتَهُ، إن شاء الله»[1].

وليس في هذه الرسالة إشارة إلى بيان مدى العلاقة الوثقى بين الكاتب والمرسَل إليه، مع إغفال ذكر اسم حامل الرسالة صراحةً، وهي بعيدة عن تكلف العبارات، إلى جانب أن الكلام جاء كلهجة الأمر.

ومنذ مطلع الرسالة تبدو ذاتية الكاتب ؛ الذي يتمتع بسلطة في زمن المأمون، فهو يصدر الأمر ؛ من خلال نزعة إلزامية، وضرورة العناية بالمُوصى به.

واعتمد الكاتب على دقة الألفاظ ؛ لإيضاح الأمر، وعدم مخالفته، فكان التركيز جلياً، مما أكسب العبارة اكتنازاً، وقوة تأثير، مع سرعة الدلالة ومعرفة القصد ؛ دفعاً للتلكؤ أو الالتواء.

وحملت الرسالة أيضاً قبساً من التشويق، لأن عامل الولاية بعد أن عرف أن المرسل هو أحمد بن يوسف لابد أن يسارع إلى تنفيذ المضمون، وإلا فإنه يُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه. وقد يفكر عامل الولاية برضا الكاتب فيزداد شوقاً إلى المسارعة لتحقيق الحاجة مهما كانت.

واعتمد الكاتب على توازن العبارات (تام العناية، شديد الرعاية) والسجع (كتابي ــ خطابي، إرادته ــ أمنيته).

---

(1) جمهرة رسائل العرب (395/4).

وليس في النص غرابة، ولا إسهاب، ولا تعقيد، ولا لبس، ولا تكلف, ولا تصنيع، بل جاءت الرسالة هيِّنة ليِّنة، وفَيْضَ عقل، وشهادة حق، بحيث يتم التكامل بين الألفاظ والمعاني والجَرْس الموسيقي المستولي على نهايات الجُمَل، بكل عذوبة وأريحية.

ومن رسائل التوصية ما أمر به المأمونُ عمروَ بن مَسْعدة أن يكتب لشخص كتاباً إلى بعض العمال بالوصية عليه، والاعتناء بأمره في سطر واحد، فكتب إليه: «كتابي إليك كتابُ واثقٍ بمن كُتِبَ إليه، معنيّ بمن كُتِب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حاملُه، والسلام»[1].

وله رسالة أكثر اختصاراً، وأقل كلمات، يقول فيها: «أما بعد ؛ فموصِّلُ كتابي إليك سالم، والسلام»[2].

ووجه الجمال في الرسالة يكمن في كلمة (سالم) حيث أراد قول الشاعر:

يُديرونني عن سالمٍ وأُديْرُهم وجِلْدةُ بين العين والأنفِ سالمُ

أي: يَحُلُّ مني هذا المحل.

وقد يُراد بكلمة (سالم) أن اسم حامل الرسالة: سالم. ففي الكلمة تورية.

5 ــ الاعتذار:

عَرَف العصرُ العباسي رسائل الاعتذار، وغالباً ما كانت تجري بين الأصدقاء؛ الذين بينهم علاقات مشتركة، فيسيء أحدهم، ثم يندم، ويحاول استمالة الطرف الآخر، ويتنصل من فعله، ويحتجُّ لنفسه؛ لِيُحِلَّ المودة والمحبة من جديد محل البغض والكراهية.

---

(1) عن وفيات الأعيان (390/1). وجمهرة رسائل العرب (430/3).

(2) عن وفيات الأعيان (390/1). وجمهرة رسائل العرب (431/3).

ومن رسائل الاعتذار ما كتبه يوسف بن القاسم ــ والد الكاتب أحمد بن يوسف وزير المأمون ــ معتذراً إلى محمد بن زياد الحارثي الشاعر،وقد عاتب محمدٌ يوسفَ على تأخير عَرْض حاجته على الخليفة هارون الرشيد، فقال ابنُ القاسم رداً على عذله وملامته: «صدقتَ وتعدَّيتَ،فأما صِدْقُكَ ففي تأخيري، وأما تعدِّيكَ ففي عَذْلي عليه، وإنما طلبتُ وقتاً أُصادفُ منه فيه طِيْبَ نَفْس،وطلاقةَ وجه،فيمكنني القول ــ قبل عَرْضِ الحاجة ــ في تقريظك،بما لعلَّه أنْ يُميلَ إليكَ قلبَه،وظننتَ أني أخَّرْتُها توانياً فتعدَّيْتَ»[1].

ويُبيِّنُ الكاتبُ سبب تأخرِه في عرض حاجة صاحبه على خليفةِ المسلمين، في أنه كان يتحيَّنُ الفرصة المناسبة؛ التي تُهيِّئ الجوَّ صافياً، ويكونُ الخليفة منشرح الصدر، طَلْقَ المحيا، هادئ النفس، وعند ذلكَ يمكن لهُ أن يعرض عليه حاجة صديقه، فيستميل قلبه، ويتمَّ إنجاز الحاجة وقضاؤها.

وكان الكاتبُ حيادياً غير مُتجنٍّ على صديقه، إذ دافعَ عن نفسه، ووضَّحَ موقفه، وانتصف لذاته، ولكنه في الوقت نفسهِ اعتذر لصديقهِ عندما وضَّح لهُ سبب تأخره؛ بعيداً عن الإهمال والتباطؤ. كما تحمَّل الكاتب ملامة صديقه له، وقابلها بالحلم والصفح والغفران، وحقق له ما أرادهُ، وقضى حوائجه.

وتدل ألفاظُ الكاتب على أنه يمتلكُ ثروةً لغوية كبرى، يفتنُّ في عرضها لتؤدي الغرض المبتغى، بحيث لم يجترَّ ألفاظاً بعينها، بل كانَ قادراً على التفصيل في موضوعه، والإتيان بالمعاني التي شكلت وحدة متلازمة، لا يمكن فَصْلُها عن بعضها، فكانَ الأسلوب قوياً واضحاً، حَسَنَ الوقع في النفوس، وذا تأثير كبير، مُقْنِع.

ومن خلال الطي (صدقت وتعديت) والنشر (فأما صدقكَ ففي تأخيري، وأما تعديكَ ففي عذلي) استطاع الكاتبُ أن يشرحَ خفايا الموضوع، ويُحدِّدَ ــ بعدالة ــ ما له

(1) عن كتاب الأوراق، للصولي (159/1). وجمهرة رسائل العرب (154/3).

وما عليه من خلال لغة عذبة، مُستساغة. وبدا قادراً على حلّ القضية حـلاً منطقيـاً مقبولاً، فكانَ تحليلهُ وعَرْضُه تفريعاً للمسألة، وشرحاً دون إطالة، فاتصفَ بالبراعة في التعبير، والإيجاز غير المخلّ في طريقة الكتابة، وتكوينِ الأسلوب.

وترجم الأسلوبُ أحاسيس الكاتب، وعبّر عن انفعالاتهِ بهدوءٍ وتأنٍّ، بعيداً عَـن الجفاف، فتلاصقت العاطفة مع عمق الأفكار، ومنطقية كتابتها، فمـزجَ الكاتـب بـينَ الفكرة والعاطفة مزجاً دقيقاً ناجحاً، لم يغرق في اللفظية، ولم يتهالك على المعنى، بل بدا معتدلاً، حَسنَ التقدير.

ومن رسائل الاعتذار: ما كتبهُ عبد الله بن علي إلى يوسف بن علي، يعتذرُ عن تأخر عطائه لهُ في بداية كل شهر، وقد كانَ يبرُّه كثيراً، فغَفلَ عنه شهرين، فكتب إليه، فاعتذر ابن علي بقوله: «لم يكن تأخيرُ برِّنا عنكَ لِبُخْلٍ وضَنّ، ولا إهمـال وتنـاسٍ، لكنها غفلةٌ من مُوجبٍ لحقّك عارف، شَغله عنك ما يُقسِّمُ قلبه،ومُتَّكِلاً على معرفتك به، وبَسْطِ عُذْرِكَ له»[1].

وتدل الرسالة على حُسنِ أخلاق الكاتب، فهو المنعم المتفضّل ومع ذلكَ يعتـذر عن تأخر برِّهِ وإنعامه، ويتابع محاولة إقناعِ صديقه بسبب تأخر جِرايتهِ، ويعزو ذلـكَ إلى كثرة مشاغله، وازدحامِ أعمالهِ؛ مما تسبَّب في غفلتهِ عن متابعة أداء حق الصديق، وينفي عن نفسه البخل، أو الإهمال؛ أو التناسي، فحق الـصديق محفـوظ، وأخـلاق الكاتب لا تسمحُ بالإساءة، ولكنها مشاغل الحياة التي لا ترحم.

ومن أجل ترضية صديقه، وإعادة المياه إلى مجاريها، وإزاحة الـشحناء مـن القلوب، قام الكاتبُ بسدّ حاجات صديقه، وإعطائه حدَّ الكفايةِ وزيادة، فقـال: «وقـد أمرتُ لكَ بألفي درهم، رزقك لشهرين، فاقبضهما، ولا تنتظرن لي أمراً بعدهما فـي مثلهما عند وجوبهما، وأمرتُ لكَ بألفي درهم تُصلِحُ بهما حالكَ، وقد أطلقتُ بعد هـذا

(1) كتاب الأوراق؛ للصولي (147/1) وجمهرة رسائل العرب (17/3).

يدكَ في المال؛ لتأخذ منه كفايتكَ، وفضلاً يكون عُدَّة لك لِما لا يُـؤْمَنُ مـن عَثَـراتِ الدُّهور، وحوادثِ الأمور»[1].

ولا يكتفي الكاتبُ بالاعتذار عن طريق الكلمات، بـل يهـبُ صـديقه مبلغـاً مضاعفاً، ليحسِّنَ أحوالهُ، ويصلحَ أعمالهُ، ويجعلَ ذلكَ المبلغ مستمراً لا ينقطعُ، وبـذا جمع بين الاعتذار الكتابي، والسخاء المالي.

ثم يصفُ صديقه بصفاء القلب ومحبته، والودِّ الصادق الذي لا يعرفُ الزغل، فيقول: «فإنكَ لم تَصْحَبْنا إلا بقلبٍ وامق، ووُدّ صادق»[2].

ويبدو الكاتب من خلالِ رسالته قادراً على اسـتيعابِ الموضـوع، وتجميـع أطرافه، ومناقشةِ ما يتعلق به، وإيجادِ المسوِّغات، فأتقن وسيلةَ التعبير الفني، عبرَ لغةٍ كتابيةٍ راقية، فصيحة، تحتفل بالمعنى، وتنطلق عبر نتاج لفظي مُرتَّب وملائم، يتراوح بين التحليل والتأليف، في حركة دائبة لتصنع رسالة اعتذارٍ لائقة، تتفردُ بفنيتهـا دون منازع، محققة التوازن بين الأثر الفني وأدواتهِ الكتابية.

والرسالة موجزة، لكنه إيجاز غير مُخِلّ، لأن الغرض قـد تحقـق، والمعنـى المراد قد فُهِم، وآتت الرسالةُ أُكُلَها، مما يجعل الكاتب يتمتعُ بإبداعٍ فني متميز، وذوق لا يوصف، فضلاً عن تجاربه الكتابية؛ مما يُنبئ بقوة لغتهِ، واقتدارهِ علـى التعامـل معها، وتوقه إلى نشدانِ الكمال في التعبير.

وكانت لغةُ الرسالة قريبة ميسورة، غير مبتذلة، حيث اختار الكاتـب الكلمـة الأنسب أداءً، والأوضح دلالةً، والأكثر دقة، والأشد تفـصيلاً، باستقـصاء وتحليـل، معتمداً على ألوان تتضافر فيما بينها؛ لتشكل جمالية الرسالة، وهي:

---

(1) المصدران السابقان.

(2) المصدران السابقان.

* السجع (نفقتنا ــ بأمرنا، الدهور ــ الأمور، وامق ــ صادق).
* التوازن (عثرات الدهور وحوادث الأمور، بقلب وامق ووُدٍّ صادق).
* استقصاء أسباب العذر (لبخل وضَنّ، ولا إهمال وتناس) وليس بعدَ هذه المسائل عذر لمعتذر.
* المؤاخاة بين المعاني المتجانسة (أحللناك على محل الشريك، وخلطناكَ بأنفسنا خَلْطَ النسيب). فكلا العبارتين يمتحُ من قرابة واشجة تجمع المعاني، وتدعو النظيرَ؛ ليترقى الفكر من معنى لآخر إلى ما هو أقوى منه، حتى يبلغَ الأمر مداه.
* الإيحاء، فالرسالة بمجملها تجسيدٌ لحياة الكاتب وصديقه في علاقة اجتماعية خاصة، تعتمدُ على الإيحاء، أي: استخدام التوازن والتناسب بين اللفظ والمعنى، والاقتصاد في التعبير الكتابي، والبناء المحكم في التراكيب والجمل، وعلى مستوى النص كله.

وزاوج الكاتبُ بين (نا) الدالة على ضمير الجمع،وبين تاء الفاعل المتحركة (برّنا، ظننتُ، كنَّا، أمرتُ، تَصْحَبْنا). إلا أن (نا) كانت أكثرَ في الرسالة؛ مما يدلُّ على شعور الكاتب بالعظمة، والمكانة الاجتماعية العالية، واليد العليا المنفقة على مَنْ هُوَ دونها.

وتراوح الأسلوبُ بين الخبر والإنشاء، فكانَ نفياً (لم يكن) واستدراكاً (لكنها غفلة) وأمراً (فاقبضهما) ونهياً (لا تنتظرن) كيلا يكون رتيباً ذا إيقاع واحد، وليستطيعَ الكاتب تمثيل الانفعالات المختلفة، والمشاعر المتعددة.

6 ــ الشكوى:

تعدَّدت رسائل الشكوى في العصر العباسي؛ إذ لجأ كاتبوها إلى التخفيف عن أنفسهم مما يعانونه من وطأة الحياة، ونزول نوائب الدهر، فإذا هم يصدرون آهاتهم كلمات تحمل مرارةَ البلوى، وشدة الحزن.

واتسعت دائرة موضوعات الشكوى، وأغراضها، فكان الأدباء يشكون من غدر الزمان، وتقلُّب أحواله، كما شكوا من الناس، وتغيُّر أخلاقهم، وفسادِ أعمالهم.

ومن الشواهد المتميزة في هذا الصدد ما كتبه الجاحظ يصور أحواله، ويشكو لأحد أصدقائه ما يجد من المشاق النفسية، والضغوط الخارجية، رابطاً بين فساد الزمانِ وفساد أحوال أهله، فقال: «كتبتُ إليك وحالي حالُ من كَثُفَتْ غُمُومُه، وأشكلت عليه أمورُه، واشتبه عليهِ حالُ دهره، ومَخْرَجُ أمره، وقلَّ عندهُ من يثق بوفائه، أو يحمدُ مَغَبَّةَ إخائه؛ لاستحالةِ زماننا، وفساد أيامنا»[1].

وإزاء اشتداد الأمور والتباسها، وبوائق الزمان وأهله، أحسَّ الجاحظُ بأزمة نفسية خانقةٍ؛ مما أثاره ليمسكَ اليراع، ويصف ما شعرَ به؛ من تكالب الحياة، وغموم الوقائع، وهمومِ التعامل مع الآخرين.

ثم أخذ الجاحظُ يُفصِّلُ في المسألة أكثر، فأعطى جانباً من الصورة العامة للزمان، فإذا هو يجدها متمثلة في انقلابِ المفاهيم، وتغيّر مواقف الناس من القيم النبيلة، والصفات الحميدة، مما سبَّبَ اختلالاً عميقاً وواسعاً في الواقع الحياتي. يقول: «فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان، والصدق آفةً على المال، والقصدَ في الطلب ... دليلاً على سخافة الرأي؛ إذ صارت الحظوةُ الباسقة، والنعمةُ السابغة في لؤمِ المشيئة، وسناءِ الرزق ؛ من جهة محاشاة الرَّخاء، وملابسةِ مَعَرَّةِ العار»[2].

وهذا التغيرُ في أخلاق الناسِ أدَّى إلى مفهومٍ مغالِط، حيث تغيَّرت نتائجُ الأخلاق الحميدة من جَلْبِ الخير والمنفعة والأمان، إلى جَلْب الشر والضر والقلق ؛ مما يُؤجِّج صدور الأحرار، ويجعلهم ينفثون آلاماً حرَّى، ويحسُّون بالضيق من حولهم، فالواقع جحيم لا يُطاق، والأخلاق المنكرة تحزُّ في النفس، وتُدمي القلب.

---

(1) وهو في العقد الفريد (195/1). وجمهرة رسائل العرب (49/4).

(2) المصدران السابقان.

ولا يكتفي الجاحظ بعرض الصورة الاجتماعية بشكل عام، بل يُحدِّد أبعادها من خلال نموذج حي شاهَدَهُ، ورآه، وعَرَفه، والذي تجسَّد في شخصٍ لـم يُـسمِّه، وهـذا الشخص يمتلك كل الصفات الجليلة، والمؤهلات العلمية، والأخلاق الرفيعة، لكنَّ جَوْرَ الزمان وقف له بالمرصاد، فلم يقدر على جني ثمرات علمه، وآثار صفاته الماجـدة. يقول الجاحظ: «ثم نظرنا في الوفاء، والأمانة، والنُّبْل، والبلاغة، وحُـسْن المـذهب، وكمال المروءة، وسَعَة الصدر، وقلة الغضب، وكَرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه، فوجدنا فلان بن فلان، ثم وجدنا الزمانَ لم يُنْصِفْه من حقه، ولا قام له بوظائف فَرْضه، ووجدنا فضائلَه القائمةَ به قاعدةً به»[1].

وأمام هذا الواقع المتأزم، وظلم الزمان وعدم إنصافه، استشرى الألم والحـزن في نفوس الصالحين، وأحسّوا بشرخٍ في أعماقهم، فثمة هُوَّة عميقة بين ما يؤمنون به، ويسعون لتحقيقه، وبين الواقع الظالم، والزمان الجائر، مما أثَّر في نفوس الكثيـرين، وجعلهم يعتقدون «أن الطَّلاح أجدى من الصلاح، وأنَّ الفَضْلَ قد مضى زمانه، وعَفَتْ آثاره، وصارت الدائرةُ عليه»[2].

والأمر الأشد مضاء، والأصعب إحساساً، أن يدفع الزمان أهلَ الصلاح ليخلعوا أثواب القيم الفاضلة، نتيجة وجودهم في مجتمع مُشوَّه الصورة، يمسخ الحقائق، ويُغيِّر النظم الخلقية إلى النقيض. يقول الجاحظ: «فهذه حُجَّتُنا ــ والله ــ على مَنْ زعـم أن الجهل يخفض، وأن النَّوْكَ يُرْدِي، وأن الكذب يضر، وأن الخُلْفَ يُزْرِي»[3].

وهذا ما يدفع الجاحظَ ليستشعر اضطراباً صارخاً في الوجدان ؛ إزاء ما ينبثُّ أمامه في الواقع من تسلُّط الجهال، ووصولهم إلى مراتب عالية، ومن انتشار الحمقـى

---

(1) جمهرة رسائل العرب (50/4).

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق. «النَّوك»: الحمق.

وارتفاع مكانهم، ومن تفشّي الأكاذيب، واستفادة الكاذبين من أخلاقهم الفاسدة، فقد صوَّر الجاحظ كيف تصبح الصفات الطالحة ذات نتائج مفيدة لأصحابها، إذ تعود عليهم بإيجابية عجيبة، تجعل الحليمَ حيران.

ولم يسلم الجاحظ من ظلم الزمان وأهله، وهو الأديبُ العالم، والجهبذ الناقد، إذ ناصَبَهُ زمانهُ كل ألوان العداء، وكان حجر عثرة في وجه أفكاره، وأخلاقه، وصفته. وينطلق الجاحظ ــ مُعلِّم العقل والأدب ــ من واقع تجربته مع الزمان ؛ كي يوضح ما أحسَّ به من أعاصير الملمّات، ومكاره الحياة العاتية ؛ التي تتراكم وتتراكب بأحداثها ومصاعبها، حتى لا تبقي مكاناً لتحمُّل ألم جديد، أو ضيْقٍ مُسْتَحْدَث، فيصف نفسه، وما حلَّ به قائلاً: «كأن الزمان يُوكَّل بعذابي، أو يُنْصَب بأيامي، فما عيشُ مَنْ لا يُسَرُّ بأخ شفيق، ولا يصطبحُ في أول نهاره إلا برؤية مَنْ يكرهه، وبغُمَّةِ مَنْ يَغُمُّه طلْعتُه، فقد طالتِ الغُمَّة، وواظبتِ الكُرْبة، وادلهمَّتِ الظُّلْمة، وخَمِدَ السِّراج، وتباطأ الانفراج»[1].

ولشدّة وقع الأمر على الجاحظ، وشعوره بالضيق يحاصره من كل ناحية، حيث تكالبت عليه المحن والشدائد، فزاد ذلك من غمه وهمه، وشدَّة مايحسّ به من العَنَت، وما يراه من تبدُّل الحقائق، فإنه تمنى قيام الساعة ليريح نفسه من مشاهدة وإحساس هذا الهم النفسي الكبير، فيقول: «فليت ــ أي أخي ــ ما أستبطئُه من النَّفخة، ومن فَجْأة الصَّيْحة ؛ قُضِي فحان، وأُذِن به فكان»[2].

ومَنْ تمنى قيام الساعة فلا شك أنه بلغ مبلغاً عظيماً من القلق والاضطراب، بحيث حاصرته الهموم، ولم يَعُدْ في قوس الصبر عنده مَنْزَع.

---

(1) جمهرة رسائل العرب (51/4).

(2) المصدر السابق.

إن عناصر طريقة التعبير عند الجاحظ تتكون من الألفاظ، والعبارات، والصنعة، أما الألفاظ فهو يُعْنَى بها عناية كبيرة ؛ لإفهام الآخرين ما يودُّ قوله، ويؤثر في نفوسهم، ويقنعهم في أعماق ذواتهم. ومن هنا اختار الجاحظ ألفاظه، وفصَّلها على أقدار المعاني، بحيث لا يجد السامع أو القارئ حاجة إلى التأويل، فهو يشاكل اللفظ لمعناه الدال عليه دون تقصير أو زيادة، كقوله (وجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهلَ والحمقَ يحظى به خَدِيْنُه)[1].

ويتحدث الجاحظ عن ضرورة اختيار الألفاظ فيقول: «ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه، مُتخيَّراً في جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشَّت إليه الأسماع، وارتاحت إليه القلوب»[2].

وقد أثبتَ هذه الصفات في رسالته هذه، فتخيَّر ألفاظه، فكانت سهلة المخرج، سلسة في النطق، واضحة الدلالة.

كذلك أحكم الجاحظ مواضع ألفاظه، فاجتنب التكلف والتعقيد، وتوخى العبارة السهلة ؛ ليظهر المعنى واضحاً ؛ لذلك كانت ألفاظه موجزة، وترتيبه لها في سياق الكلام مُنسَّقاً، مع سهولة التراكيب، ووجازة العبارة. وشكلت الجملُ عنده وحدة متكاملة، تطابق مقتضى الحال. واستطاع باثنتي عشرة لفظة أن يصف غمه النفسي، وكربته الشديدة، وضيقه العنيف، فقال: «فقد طالت الغمة، وواظبت الكربة، وادلهمت الظلمة، وخمد السراج، وتباطأ الانفراج».

ونَسَج الجاحظُ جُملَه شديدة التماسك، غنية الإيحاء، ولعل الإيجاز أقوى صفاتها. وسياق الجمل الاسمية عنده يدل على الاستقرار والوصف والحديث عن

---

(1) المصدر السابق (50/4).

(2) البيان والتبيين (8/2).

الحال (هذه حجتنا، هذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح، كأن الزمان يُوكَّل بعذابي)، في حين وردت الجمل الفعلية تُبرز حركة الفاعل إبرازاً واضحاً نابضاً بالحيوية، مُشِعّاً بالنشاط، كقوله: (وجدنا الحياء متصلاً بالحرمان، نظرنا في الوفاء والأمانة).

واعتنى الجاحظُ بعباراته، وجَعَلها مطابقةً للمعنى عن طريق التلاؤم والدلالة الصوتية، فجعلها تشبه الشعر الموزون ؛ لذا تَقْبَلُها الأذن بيسر، وتوافق حركات النَّفس، فتثير انتباه السامع والقارئ؛ لأن نثر الجاحظ تتساوى فيه مقاطع الكلام فيحلو وَقْعُها ؛ من خلال نغمة موسيقية مُحبَّبة. يقول: (حفظك الله حِفْظَ مَنْ وفَّقه للقناعة، واستعمله بالطاعة)[1] . وقوله: (وجدنا مَنْ فيه السُّفُولية الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبرِّح، والخُلْف المصرِّح)[2].

وفيما يتعلق بالصنعة الأدبية، فلم يَسْعَ الجاحظ للصنعة لمجرد أنها صنعة وحِلْية أنيقة، لكنه وظَّفها لتأدية المعنى أداءً فنياً متكاملاً، فهي وسيلة لتحقيق بلاغة النص. ومن هنا أورد الجاحظ طائفة من تعابيره بأسلوب السجع (حال دهره مخرج أمره، وقلَّ عنده مَنْ يثق بوفائه أو يحمد مَغَبَّة إخائه).

والتوازن (استحالة زماننا، وفساد أيامنا) وقوله: (وجدنا الشِّعر ناطقاً على الزمان، ومعرباً عن الأيام)[3].

والطباق (أخطأ ــ أصاب، الطلاح ــ الصلاح، يشقى ــ يحظى).

وهذا ما رَفَع أسلوب الجاحظ، وارتقى به إلى مستوى فني لا يسلم للكثيرين من ذوي الأقلام، فقدرته البلاغية، وأسلوبه اللفظي عنصران مهمان في إبراز نثره الفني العالي.

---

(1) جمهرة رسائل العرب (49/4).

(2) المصدر السابق (50/4).

(3) المصدر السابق.

7 ــ الــشوق:

تضمَّن هذا الموضوع عَرْضَ المشاعر التي أحسَّ بها الكُتَّاب تجاه أصــدقائهم وأحبَّتهم ؛ فعبَّروا عما يُكنُّونه من خلجات قلوبهم، ولواعج صدورهم، فتحــدثوا عــن حلاوة الشوق ومرارة الهجر والفراق، وتأسَّفوا على الأيام الخالية، والمجالس الأنيسة، وتمنوا عودتها بفارغ الصبر.

ولأحمد بن يوسف ــ الكاتب العباسي المعروف ــ رسالة إلى أحد أصــدقائه، يشكو شوقه إليه، فقال: «شوقي إليك شديد، يستوي في العجز عن صــفته الخطيــبُ البليغ، والعَيُّ المُفْحَم(1)، فدعاني ذلك إلى الخَفْض على نفسي، وتقديم جملة من ذِكْــره إذا عارضْتَ به ما في قلبك كانت له موافِقةً، بل كانت عليه مُفْضِلةً»(2).

والكاتب ــ هنا ــ يعجز عن وصف شوقه إلى صديقه، وإذا كان البليغ الفصيح يقف عاجزاً عن وصف مشاعر الكاتب، فمن باب أولى أن يلزم العييُّ الــصمت، ولا ينبس ببنت شفة. وقد وجد الكاتب في ذلك مسوّغاً له يُفسِّر عجزه، وعدم قدرته علــى وصف توقه وولعه وشوقه.

والرسالة موجزة، لكنها مُعبِّرة، ودالّة على ما يُكنُّه الكاتــب تجــاه صــديقه، وجاءت ألفاظه مركَّزة، ذات إيحاء كبير بمعانٍ لا حصر لها، وشكلت فيما بينها اتساقاً عجيباً يوحي بالتلاحم بين منظومة الألفاظ ومعانيها. ولا شك أن الكاتب مــن أنــصار تغليب اللفظ على المعنى ؛ إذ أَحْسَنَ انتقاء ألفاظه واختيارها، ليعتني بالمعــاني التــي تحتها، فالألفاظ خدم للمعاني، ومُقوِّية لها، وبها تحصل الفاعلية، ويتحقق الجدوى.

---

(1) «المفحَم»: العاجز أمام الحجة.

(2) جمهرة رسائل العرب (380/3).

والمعاني محصورة في الذهن، حتى أبرز الكاتب معانيه من خلال ألفاظه، فجلاَّها العقل، وأوضح دلالتها الفكر، وصوَّب إشارتها، فكانت بيِّنة لكل ذي عينين. وبدا الكاتب طارحاً للتكلف ؛ فهو يُعبِّر عن عواطف إنسانية صادقة، وينْشِئُ رسالته ومعانيه حاضرة، وألفاظه بين يديه، والحافز موجود، والتجربة قائمة، فاستلَّ ألفاظه، وألقى فيها روح المعاني، وهذا ما أشار إليه أبو هلال العسكري بقوله: «إذا أردتَ أن تصنع كلاماً فأخْطِرْ معانيه ببالك، وتنوَّقْ له كرائم الألفاظ، واعْمَلْه ما دمتَ في نشاط شبابك»[1].

ونكَّر الكاتب الخبر (شديد) ليعمِّمه، ويعطيه مدى أرحب، وآفاقاً واسعة، ففي التنكير تكثير.

وعَبْر المقابلة (الخطيب البليغ والعَيّ المفحَم) كان التضاد على أشده، فاكتسب الكلامُ جمالاً في الأسلوب، وبياناً في المعاني ؛ لأن هذه المقابلة جاءت عفواً دون تكلف ولا تعمُّل، فازداد الكلامُ رونقاً وسهولة، وألقاً في التعبير.

ولفظة (الخَفْض) استخدام قرآني، يشي بدلالات لا تُحدُّ، وأهمها: نقيض الرفع، والتسهيل واللين، فبدا المعنى لطيفاً، رقيق اللفظ، ذا رونق متلألئ، فكان نثراً كأنه نظم.

خاتمة:

إن موضوع الرسائل النثرية ــ ولاسيما الشخصية منها ــ يدل على تقدم هذا الفن في العصر العباسي، ويشير إلى غاية الكُتّاب منه، حتى صار هذا التوجه دلالة على سموّ مكانة الكاتب، وعلوّ مقامه الأدبي.

---

(1) كتاب الصناعتين (133).

وعلى هذا فإن الكتابة النثرية الشخصية كانت مُعبِّرة عن الوسط الاجتماعي في ذاك الزمن، وما يدور بين الناس من موضوعات مهمة، ترنو الأنظارُ نحوها، ويُشْرع الكُتَّاب أقلامهم ليفرغوا ما في جُعبتهم من مشاعر وأفكار؛ تُقْنع الطرف الآخر، فيدوم الأثرُ الكتابي في ذهن المتلقي، ويتصل بطبيعة النفس البشرية، وهذا يتفاوت تبعاً لنوعية المعاني المدوَّنة.

وقد تطور فن كتابة الرسائل النثرية في العصر العباسي تطوراً واضحاً، واستطاع الكُتَّاب أن يقدموا ــ من خلال رسائلهم ــ صورة عن عصرهم، ومجتمعهم، وعلاقات الأفراد فيما بينهم، على صعيد الموضوعات المختلفة من التهنئة، والتعزية، والإهداء، والتوصية، والاعتذار، والشكوى، والشوق...

وتمتاز تلك الرسائل بمقام رفيع في فن الكتابة، مع الإيجاز البليغ، والصور الأدبية المتألقة، والثراء اللفظي، واللغة العذبة السلسة، مع إضفاء أحاسيس الكاتب على النص، فامتزجت الفكرة والعاطفة، وبدت جمالية الرسائل جلية لكل مطلع عليها.

واستطاع الكُتّاب في العصر العباسي أن يدركوا أبعاد الرسائل الشخصية، وينفذوا إلى صميمها, ويهتدوا إلى كُنْهِ النثر وجوهريته الفنية، عبر مستوياتٍ متألقة من اختيار اللفظ، وتوخي المعنى، والصدق الفني, والموسيقا، مع التدقيق، والوضوح، وقوة الإقناع.

المصادر والمراجع

ـ **البيان والتبيين:** – للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط 4، 1975م.

ـ **جمهرة رسائل العرب:** – لأحمد زكي صفوت، طبعة مصورة بدار الكتب العلمية ببيروت؛ عن الطبعة المصرية الأولى 1937م.

ـ **زهر الآداب:** – للحصري، تحقيق زكي مبارك، المطبعة الرحمانية، القاهرة، 1925م.

ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا:** – للقلقشندي، طبعة مصورة عن طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف، 1963م.

ـ **العقد الفريد:** – لابن عبد ربه، اعتنى به أحمد أمين ورفيقاه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 3، 1965م.

ـ **غرر الخصائص الواضحة:** – للوطواط، المطبعة الشرفية، مصر ، 1328هـ.

ـ **كتاب الأوراق:** – للصولي، عني بجمعه ج ـ هيوارث دن ، دون ذكر الدار الناشرة أو تاريخ الطبعة.

ـ **كتاب الصناعتين:** لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط 1، 1971م.

ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان:** لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2006/6/15.